



49 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثاني عشر

ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

3. الفجوة الثقافية: النخب والجماهير

تنظر أغلبية الريفيين العرب إلى العربي المتفرنس. أو شبه المتفرنس، بازدراء. حيث يشعرون بأنه انفصل عنهم، وأن ارتباطه بالثقافة الفرنسية جعلت بينه وبين العامة هوة لا يمكن تجسيرها. ولا يستطيعون مقاومة الرغبة في كراهية أفعاله وكلامه وعاداته ومجرد وجوده. ومن جانبه يرد عليهم إقصاءهم له من خلال اقتناعه بأنه أرقى من أغلبية الناس، وأنه «متطور» على خلاف ما هم عليه.

يمكننا أن نلاحظ بشكل عام وعلى امتداد العالم العربي أن تقدم التعليم غير العربي في صفوف النخبة يؤدي إلى ازدياد حجم الهوة بين النخبة والجماهير. وليس هذا الوضع جديداً، ففي السابق كانت هنالك مسافة معينة ما بين الطبقة العليا والطبقة السفلى عند العرب. لكن الهوة المعاصرة التي نتكلم عنها هي من نوع يتواجد في مواضع كثيرة بين من يتمتع بأفضل ما يمكن لثقافته أن توفره له، ومن ينبغي عليه تحمل التنوع ضمن ثقافة واحدة يسميها أوسكار لويس «ثقافة الفقر». فهنا يتبوأ الغني والفقير، والمتعلم والأمي، ومهما كانت المسافة بينهما، المكانة القديمة نفسها على الحدين ضمن سياق ثقافي واحد.

ومع قدوم منهج التعليم الفرنسي إلى شمال أفريقيا، ومثيله الانجليزي إلى لبنان ومصر، نشأ بعد ثقافي جديد كلياً؛ فمنذ ذلك الحين، ازدادت المسافة بين الغني والفقير، والمتعلم والأمي، من خلال عنصر إضافي أدى إلى عزل أحدهما عن الآخر.

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

إن القاسم الثقافي المشترك ما بين العربي النخبوي المتغرب ونظيره الريفي الأمي كليا أو جزئيا يكاد لا يساوي شيئا. ومع أنه يخلق فجوة ثقافية حادة بين نخبة المدن وجماهير المدينة والريف، فإنه لا يكفي لوحده لتهميش العربي الذي تلقى تعليما غربيا. ولكنه قادر على عزله بشكل كبير أو ضئيل عن بنيته الاجتماعية الراسخة وجعله يشعر بأنه غريب. ويصبح عامل الهامشية فعلا هنا عندما يُجبر هذا الفرد على إدراك عجزه عن تحقيق التماهي الكامل مع ثقافة وقيم الغرب التي انجذب إليها. وبما أن أكثر الحالات وضوحا في هذا المجال هي حالة النخبة العربية ذات التعليم الفرنسي في شمال افريقيا، فسيكون لي تعليق عليها بالخاصة.

يعتبر «المتطورون» في شمال افريقيا نتاجا للتعليم الفرنسي؛ وهم مولعون بالثقافة الفرنسية، ومعجبون جدا بفرنسا ولغتها وأدبها وحضارتها وقيمها. وكثير منهم يعتقد بأن نظام التعليم فيها يقدم أفضل تدريب إنساني في العالم. ويحمل التعبير الأسمى للثقافة الإنسانية الغربية. ويبدو الموقف الذي يشير إلى نجاح فرنسا في تلقين «المتطورين» بشكل جلي في مقالة تحت عنوان «فرنسا... إنها أنا» كتبها فرحات عباس في صحيفته (الاتفاق L' Entente) في 23 فبراير 1936، وفيها كتب عباس الذي أصبح رئيس المجلس الوطني الجزائري في ما بعد:

ليس هنالك ما يمكن أن يدعى أرض الأجداد في الجزائر... لقد عجزت عن اكتشافها.
وتفحصت تاريخ الجزائر، وسألت الأحياء والأموات، ومشيت في المقابر فلم يحدثني
أحد عنها... إننا أبناء عالم جديد صنعه عقل فرنسا وطاقتها.

لكنه. وفي خطاب ألقاه في المجلس الوطني الفرنسي بعد عشر سنوات من كتابة المقال، اعترف صراحة بأنه غير رأيه حول مسألة الوطنية الجزائرية، فقال:

الشخصية الجزائرية... أرض الأجداد الجزائرية، والتي لم أتمكن من اكتشافها بين
الجماهير المسلمة عام 1936، قد اكتشفتها اليوم...

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

وفي عشية الاستقلال أعلن وطنيته الكاملة، وعبر عن رفضه للاستعمار لأنه «يمنعنا من تعلم لغتنا الخاصة بنا» وقام بتدمير «ثقافتنا الوطنية».

وبالرغم من أن حالة فرحات عباس ليست مثالا نموذجيا على الهامشية لأنها تبدي تغيرا حادا من الالتزام الكامل بالثقافة الفرنسية إلى الاعتراف الكامل بالوطنية الجزائرية. فإن هذا المثال يرسم لنا صورة لازدواج التوجه عند «المتطور». وعندما كانت فرنسا لا تزال تسيطر على شمال أفريقيا، كان الكثير من «المتطورين» يرغبون في الواقع بأن يصبحوا فرنسيين كالفرنسيين الحقيقيين، ولكنهم لم يتمكنوا من تحقيق هذه الرغبة لأنهم لم يكونوا قادرين على فصل أنفسهم بشكل كامل عن الثقافة العربية التقليدية التي تلقوها في طفولتهم. ولأنهم ببساطة لم يكونوا قادرين على أن يكونوا فرنسيين بينما هم يعيشون على أرض عربية. ومنذ استقلال دول شمال أفريقيا، وهو استقلال لعب «المتطور» دورا أساسيا فيه، كان للحماس الوطني الذي تحقق خلال ذلك أثر نفسي يمنع أي جزائري أو مغربي أو تونسي أصيل من أن يرغب بأن يصبح فرنسيا. وحتى هؤلاء الأكثر «تطورا»، ممن حصلوا على شهادات من فرنسا أو تماهوا مع ثقافتها، أصبحوا أكثر قربا من الوطنية الجزائرية أو المغربية أو التونسية بدلا عن التفكير بأن يصبحوا فرنسيين.

ومع ذلك، فهذا لا يعني أن «المتطور» يسعى لإحداث تغير جذري في موقفه من الثقافة الفرنسية، أو أنه قادر على ذلك، بل إن إعجابه بها سيستمر، وسيكون عليه أن يجد طريقة يتدبر بها شؤونه مع الوضع الجديد الذي يكون عليه بموجبه أن يكون شديد الانتقاد لما فعله الفرنسيون ببلاده باسم الثقافة ذاتها التي يشعر بالإعجاب تجاهها وربما يشارك فيها. وهكذا يكون «المتطور» الجديد ضد فرنسا على الصعيد السياسي في العادة، ومؤيدا لثقافتها على الصعيد الثقافي، أو أنه، بمصطلح أكثر عمومية، يعارض الغرب سياسيا ويؤيده ثقافيا.

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

لكن «المتطور» يبدي موقفا معكوسا حينما يتعلق الأمر بعلاقته مع بلده. فبشكل عام يمكن القول أن العربي المتغرب شديد الحماسة لبلده؛ فهو يعلن. مثلا، تأييده الكامل لصراع بلده ضد إسرائيل والغرب والاتحاد السوفيتي والامبريالية والدول العربية الأخرى... لكنه لا يستطيع أن ينسجم ثقافيا مع بلده وأغلبية السكان فيه. فبعد أن ذاق طعم الثقافة الغربية علقت به فأصبح لا يرى ثقافة بلده وسكانه إلا بعيون غربية. وهذه العيون بهذا الفرد لا ترى إلا ثقافة رجعية بدائية يسودها الجهل والخرافات... إنهم أناس لا يمكنهم الانسجام معهم وإن رغب بذلك. ومجرد التفكير بكونه جزءا منهم يشعره بالتفاهة والاشمئزاز.

إن ما سبق يقودنا إلى ما يمكن أن يكون الميزة الأكثر تدميرا للهامشية العاطفية التي يقع فيها العديد من العرب المتعلمين في شمال افريقيا: تبني الشخصية الهامشية للصورة النمطية التي يحملها الفرنسيون عن العرب. وفي هذه الصورة يبدو العربي قذرا، كسولا، بطيئا، متمسكا بتقاليدته القديمة البدائية الخرافية، وغير جدير بالثقة، غدارا، لا يسيطر على نفسه، تتحكم به العواطف والأهواء؛ وباختصار: العربي فرد يحتاج إلى الحماية من نفسه ومن غيره. وبالتالي يجب على الآخرين حماية أنفسهم منه.

وحتى في الدول العربية التي تعرضت للتأثير الغربي بدرجة أقل مما حدث في المغرب والجزائر وتونس، نجد هذه الصورة النمطية ومثيلاتها عن العربي الأمي متواجدة ضمن أفراد الطبقات العليا والمتوسطة، ويمكن تصور ذلك من خلال وجهات نظر المشرفين في أحد معامل النسيج المصرية الكبيرة عن العمال فيها. فهؤلاء المشرفون، وهم خمسمئة شخص، تخرجوا جميعهم من كليات التجارة المصرية، ومعظمهم عمل في السابق مراقب أو مساعد مراقب، ومع أن خمسمهم تقريبا أمضى بعض الوقت خارج مصر لتلقي التعليم التقني فإن مناصبهم الوظيفية كانت على الأعم أعلى بقليل من العمال العاديين، وهم تسعة آلاف شخص، وكانت هنالك فجوة كبيرة بينهم وبين الإدارة العليا للمصنع. أما العمال العاديون فكانوا مجرد شباب دون خبرة صناعية سابقة، وكانت سياسة الشركة

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

تقتضي توظيف الفلاحين الذين يمكن إرضائهم بسهولة ويشكلون قوة عاملة مطيعة سهلة الانقياد.

إن المشرفين، كما ادعت الإدارة العليا، لا يحبون العمل اليدوي ويفضلون العمل المكتبي؛ وقدموا ملاحظات مبالغ بها حول قيمة تعليمهم في كلية التجارة، وأبدوا شعوراً هائلاً من التعالي على العمال الذين أشرفوا عليهم. ومن جانبهم، انتقد أعضاء في هيئة الإشراف التناقل والكسل وانعدام التدريب عند العمال الذين يشرفون عليهم¹.

ومع أنه لا شك في وجود عمال في المصنع تنطبق عليهم تلك الصفات، فإن انتقاد المشرفين «للعمال» بشكل عام يعتبر استعمالاً حقيقياً للصور النمطية، ويبدو أن المراقبين عمدوا إلى هذه الصورة النمطية من أجل إنشاء وحماية مسافة تفصلهم كمتعلمين (ومتعلمين جزئياً في الغرب) لا ينبغي عليهم الانخراط في عمل يدوي، والعمال الذين لن يترفعوا إلى مناصب إشرافية بسبب عدم حصولهم على التعليم.

كان الحصول على تعليم في كليات التجارة امتيازاً لا يتاح في السابق إلا لقلّة قليلة من الشباب المصري، وهذه الحقيقة، وبالتعاقد مع تأثير خمس أقرانهم الذين تلقوا تعليماً إضافياً في أوروبا، بدت كافية لوصم المراقب العادي ببعض الهامشيين الحقيقيين فكانوا أعضاء مجلس إدارة الشركة الثلاثة عشر. إذ كانوا جميعهم من خريجي الجامعات، وأغلبهم أمضى سنة أو سنتين على الأقل في أوروبا أو الولايات المتحدة يدرس على حساب الشركة، وهم قادرين على التكلم بالانكليزية، وينتمون إلى طبقة اجتماعية واحدة، ويحملون توجهها مهنيًا، ويكادون ينفصلون عن مرؤوسيهم الأذنين من العمال. ومن الطرق التي تؤكد بها هذه الطبقة العليا على وجود مسافة تفصلهم عن موظفي الإشراف: انتقادهم الدائم لهم وتحميلهم مسؤولية أي قصور ينتج عن العمال².

(1) فريدريك هاريسون وإبراهيم عبدالقادر إبراهيم: بعض مشاكل العمل في الصناعة المصرية: ص 118.

(2) المصدر السابق: ص 116، 118.

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

وليس الفرد العربي المتعلم وحده هو الذي يقع فريسة لحالة الانقسام الداخلي المستمرة. فمن الممكن أن تقع المؤسسات بين فكي الثقافتين العربية والغربية. وكمثال على هذه الهامشية المؤسساتية نطرح حالة صحيفة المجاهد. وهي صحيفة أسبوعية ناطقة باسم جبهة التحرير الوطني التونسية: حيث كانت تصدر باللغة الفرنسية وحسب في بادئ الأمر لكنها أصبحت تصدر في ما بعد بطبعتين لكل من اللغتين العربية والانكليزية بكمية بلغت 25 ألف نسخة لكل منهما. لكن النسختين كانتا تختلفان من ناحيتين: المحتوى، والتوجه السياسي وهي الناحية الأهم. فقد كانت النسخة العربية تميل إلى مناقشة الرأي العام والمشاعر ضمن أوساط القوميين العرب. أما النسخة الفرنسية فكانت تميل إلى رأي الليبراليين والراديكاليين في الغرب. وجاء في عدد 22 يونيو 1963 من النسخة الفرنسية، على سبيل المثال، إنكار لاعتبار استعمال التونسيين للغة الفرنسية عملاً غير وطني، واحتجت الصحيفة بأن الفرنسية استعملت كسلاح ضد فرنسا ذاتها خلال الثورة: وفي عدد آخر وردت إشارة إلى اللغة العربية باعتبارها «دون كيشوت آخر».

وفي المغرب نجد مثالا مشابهاً جداً: فحزب الاستقلال يتخذ موقفاً شديداً المعارضاً لأي إبطاء في عملية تعريب التعليم والوظائف الحكومية وغير ذلك من المجالات. وهذا موقف يتماشى مع كل من الشخصية القومية للحزب وموقعه باعتباره أكبر الأحزاب المعارضة منذ 1963: ولكن تأييده المتحمس للتعريب الشامل لم يمنعه من رعاية الفرنسية: حيث يملك الحزب صحيفتين واسعتي الانتشار إحداهما (العالم) باللغة العربية، والأخرى (الرأي L' Opinion) بالفرنسية.

وإليك مثالا عاماً آخر عن الهامشية المؤسساتية: وهو الاستعمال المستمر للعربية والفرنسية كليهما في التعليم في شمال أفريقيا. وهو ما تمت مناقشته في موضع سابق من هذا الكتاب.